الغضب النبيل

وأنا موشك على الانتهاء من كتابى هذا، إذا بموجة من الغضب تجتاح الشعوب الإسلامية ، وإذا بتلك الشعوب تعبر عن غضبها كل حسب الأسلوب الذى اختاره ، والذى يتفق مع تفكيره ونفسيته ، وقد تفجرت براكين الغضب بسبب رسومات كاريكاتيرية تناولت سيدنا وسيد الإنسانية جمعاء ، محمدًا ﷺ ، نُشِرتْ فى صحيفة دنماركية وتتابعتْ بقيةُ الصحفِ الغربيةِ بعد ذلك على النشر ، والذى زاد من تأجج نيران الغضب إصرار الدنمارك والدول الأوربية على هذا النشر ، لأن هذا يدخل - فى عرفهم - فى نطاق حرية الرأى وهناك لا حجر على الحرية بكافة صورها ، لذلك رفضوا أن يتنازلوا عن الحد الأدنى من التراضى والذى طلبته الشعوبُ الإسلاميةُ وهو (الاعتذار) .

وما حدث على الصعيدين الإسلامى والغربى يعكس أزمتين ، أو يجسد مأزقين تعيشه الشعوبُ الغربيةُ والشعوبُ الإسلاميةُ على حد سواء .

أما ما تعيشه الشعوب الغربية ومعها أنظمتها فينحصر فى التالى :

- إنهم لا يفهمون الحرية حق فهمها ، لا حرية القول ، ولا حرية الفعل ، ولا حرية الفكر ، أو قل إنهم يفهمونها حق فهمها ولكنهم يقصرونها على أنفسهم دون غيرهم لأنهم ينزلون أنفسَهم منزلة ، والآخرين دون تلك المنزلة
- إنهم لا يقدرون العظمة الإنسانية ، فقد أجمعتْ الإنسانية واجتمعتْ منذ زمن بعيد على أن العظيم فى أسمى معانيه وأرقى درجاته هو الرجل الذى استطاع بما أوتى من نبل وشرف وإرادة وتصميم وشجاعة وجرأة وتضحية ورأفة ورحمة أن يخرج الإنسانية من الظلمات والظلم والقهر والاستبداد والطغيان إلى النور والعدل

والخير والحق ، ورفع من كرامة الإنسان بغض النظر عن دينه أو موطنه أو لونه والبرهان الصادق والدليل الساطع على تلك العظمة ، أن ملايين من البشر فى زمنه وبعده أخذتْ تهوى بكل حب واقتناع إلى عقيدته وأقواله وتعاليمه ، وقلوبهم قبل عقولهم تذكر اسمَه فى أحلك اللحظات وأظلم المواقف ، لتستمد منه مددًا وعونًا ، ينير لها تلك اللحظات وييسر لها تلك المواقف ، تلك المواصفات التى لا يجادلُ فيها منصفٌ لا تنطبق بحقٍّ وصدقٍ - وبدون تعصب أو تحيز - إلا على رجلٍ واحدٍ هو محمد - ﷺ - ولسنا الذين نقول ذلك بل مفكر وكاتب من كتاب الغرب وهو (توماس كارْلايل) .

يقول " لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دينَ الإسلام كذبٌ وأن محمدا خداعٌ ومزورٌ وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون [1] من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا . أفكان أحدُكم يظنُّ أن هذه الرسالة التى عاشتْ بها وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء كذبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدًا . ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وضلالة كان الأولى بها ألا تخلق .

فوا أسفاه ! ما أسوأ مثل هذا الزعم ! وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة! (وبعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات ألا يصدق شيئًا ألبتة من

١- يبلغ عدد المسلمين فى العالم حسب آخر إحصاء حوالى مليار ونصف مليار تقريباً .

أقوال أولئك السفهاء ! فإنها نتائج جيل كفر، وعصر جحود وإلحاد وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان . ولعل العالم لم يرقط رأيا أكفر من هذا وألأم ؟وهل رأيتم قط معشر الإخوان أن رجلاً كاذبًا يستطيع أن يوجد دينًا عجبا والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتًا من الطوب فهو إذا لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه بيت وإنما هو تلٌّ من الأنقاض وكثيبٌ من أخلاط المواد . نعم وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرنا يسكنه مائتا مليون من الأنفس ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن . وإنى لأعلم أنه على المرء أن يسير فى جميع أموره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبتْ أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته كذب- والله - ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى خيلوه حقا وزور وباطل وإن زينوه حتى أوهموه صدقا ، ومحنة- والله - ومصاب أن ينخدع الناس شعوبًا وأمما بهذه الأضاليل ، وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل ، وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرجه من كفه الأثيمة ويحيق مصابها بالغير لا به"[1] .

✍ (وعلى ذلك فلسنا نعد محمدًا هذا قط رجلا كاذبا متصنعًا يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر. وما الرسالة التى أداها إلا حق صراح ، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول . كلا ما محمد بالكاذب ولا الملفق وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فإذا هى شهاب قد أضاء العالم أجمع . ذلك

١- الأبطال - توماس كارْلايل - صفحة (٥٨- ٥٩) .

أمر الله وذلك فضل يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض القوم الكافرين) [1]

- (وعجيبة وايم الله أمية محمد ، نعم إنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ، ولم يضره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيًّا عن كل ذلك ، ولم يقتبس محمد من نور أى إنسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك فى جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء - أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية فى ظلمات الدهور – من كان بين محمد وبينه أدنى صلة . وإنما نشأ وعاش وحده فى أحشاء الصحراء ، وما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره" [2] .
- " وإنى لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة ،لا يتناول غرضًا فيتركه إلا وقد أنار شبهته وكشف ظلمته وأبان حجته واستثار دفينته وهكذا يكون الكلام وإلا فلا . وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ صارم العزيمة بعيد الهمة كريمًا برًّا ، رءوفا تقيا فاضلاً حرًّا - رجلا شديد الجد مخلصًا وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الإيناس ، بل ربما مازح وداعب ، وكان على العموم تضىء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق ، لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله – هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا . وكان محمد جميل الوجه وضىء الطلعة حسن القامة زاهى اللون له عينان سوداوان

١- المصدر السابق - صفحة (٦١-٦٢) .
٢- المصدر السابق - صفحة (٧٠) .

تتلألأ الآن . وإنى لأحب فى جبينه ذلك العرق الذى ينتفخ ويسود فى حالة غضبه ، وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ولكنه كان أبين فى محمد وأظهر. نعم ، لقد كان هذا الرجل حاد الطبع نارى المزاج ولكنه كان عاد لا صادق النية ، كان ذكى اللب شم الفؤاد .

لو ذعيا كأنما بين جنبـ يه مصابيح كل ليل بهيم

ممتلئا نارًا ونورًا ، رجلا عظيما بفطرته لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غنى عن ذلك فأدى عمله فى الحياة وحده فى أعماق الصحراء .

- " لقد كانت فى فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات ، المتوقد المقلتين العظيم النفس ، المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبرا وحكمة وحجى وأربة ونهى أفكار غير الطمع الدنيوى ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه وكيف لا وتلك نفس صامتة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين، فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق اعتبارات باطلة ترى محمدًا لم يرض أن يلتفع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل لقد كان منفردًا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات".
- " لقد كان زاهدًا متقشفًا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار وإنهم يذكرون – ونعم ما يذكرون – أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس و الطعام، مجتهد فى الله قائم النهار ساهر الليل دائب فى نشر دين الله غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت

رجل عظيم- وربكم- وإلا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحترامًا وإكبارًا وإعظاما ، وما كان يمكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله . لقد كان فى هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفة ، وكانوا حماة الأنوف أباة الضيم وعر المقادة صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا ، فذلكم- وايم اللّٰه- بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من - تضاف بنانه ؟ وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبًا من طاعتهم مقدار ما ناله محمد فى ثوبه المرقع بيده فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال " [1] .

✍ "وإنى لأحب محمدًا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه ولم يك متكبرًا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا ، فهو قائم فى ثوبه المرقع كما أوجده اللّٰه وكما أراد يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة وكان يعرف لنفسه قدرها ولم تخل الحروب الشديدة التى وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران " [2] .

هذه بعض الأقوال - وليس كل الأقوال - لكاتب ومفكر غربى ، لا يؤمن بمحمد ﷺ ولكنه مقتنع - وكل الشواهد تؤيد ذلك - أنه رجل عظيم ، ولا مراء فى ذلك وحق على

١- المصدر السابق - صفحة (٩١- ٩٢) .
٢- المصدر السابق - صفحة (٩٢- ٩٣) .

الإنسانية للعظيم أن توقره وتحترمه ، وتغض الطرف عنده ، لا لشىء إلا لعظيم دين وأيادى العظيم على الإنسانية ، لأن كل هذا الأمن والسلام والتقدم والرخاء والرفاهية التى تنعم به الإنسانية بفضل هؤلاء العظام وأنه متى واجهت الإنسانية العظماء بالجحود والنكران والتشوية والسخرية والاستهزاء والاستخفاف فإنها تقوض أهم أساس من أسس بقائها .

- إنهم ينظرون إلى تلك الملايين من البشر - المسلمين - أنهم لا حول لهم ولا قوة ، لا وزن لهم ولا ثقل فى عالم اليوم ، ولا يقدمون شيئاً للعالم المتحضر بل هم عالة وعبء عليهم .
- إن العقيدة التى يدين بها الملايين من المسلمين ، بدأت تمثل لهم عقبة فى إعادة تشكيل العالم ، وشعوبه حسبما يريدون ، واكتشفوا فى وقت متأخر أن تغيير تلك العقيدة لا ينفع معها ترغيب ولا ترهيب ، وأنها راسخة فى النفوس كرسوخ الجبال بل أشد وأقوى .
- أباحوا لأنفسهم العبث بالمفاهيم والمسميات لتتوافق ومصالحهم ، وهذا أخطر ما يكون ؛ فالتمسك بالهوية نوعٌ من التأخر والجمود ، والتمسك بالعقيدة نوع من الرجعية والتخلف ، والتضحية فى سبيل مبدأ سام نوع من الإرهاب ، وهذا من شأنه أن يحطم جسور التفاهم التى قد تبنى بينهم وبين الشعوب الإسلامية .
- ما زال الفكر الاستعمارى يعشش فى زوايا عقولهم ، وبالرغم من أن الإنسانية تخلصت من هذه النزعة البغيضة ، إلا أن الأحداث مؤخرًا أظهرت أن تلك الشعوب على استعداد أن توافق أنظمتها وتؤيدها أن تحتل وتغزو بلدًا آخر تحت أى مسمى من المسميات ، والشعب المحتَل لا يخرج عن أن يكون شعبا من

الشعوب الإسلامية ، طالما أن هذا الاحتلال سيصب فى مصلحتهم ويحقق مزيدًا من الرخاء والرفاهية .

- نصَّبوا من أنفسهم أو صياء على الشعوب الإسلامية ، فى أعمالهم وفكرهم وتعليمهم وصناعتهم وتسلحيهم .. إلخ ... والويل كل الويل لمن يفكر أن يخرج عن تلك الدائرة الحديدية ، التى رسموها وأجبروا تلك الشعوب أن يعيشوا داخلها .

أما ما تعيشه الشعوب الإسلامية ومعها أنظمتها فينحصر فى التالى :

- إن كل الشعوب الإسلامية تخلصت من الاستعمار الذى كان يجثم على أراضيها منذ زمن بعيد ، إلا أن البعض منها مازال تابعًا بشكل أو بآخر لدولة أجنبية ويدور فى فلكها ، وهى قانعة بتلك التبعية .
- إن تلك الشعوب الإسلامية لم تحقق قدرًا من التقدم والتطور والتنمية ما يمكنها أن يكون لها مكان وصوت مسموع فى عالم اليوم ، مع أن شعوبا أخرى أقل فى الإمكانات قد حققت قدرًا كبيرًا من التطور. وأصبح لها مكانة متميزة ، وحينما تقارن الشعوب الاسلامية ... تفقد الثقة فى نفسها ، ومن يفقد الثقة فى نفسه يعجز عن الحركة .
- هناك أزمة ثقة بين الشعوب الإسلامية وأنظمتها ، فليس هناك تطابق بين الاثنين ، فالشعوب تريد شيئاً والأنظمة تريد أشياء أخرى ، لاختلاف توجهات كل منهما .
- تلك الأنظمة تجد نفسها واقعة بين المطرقة والسندان ، فهناك التزامات أمام شعوبها من المفروض أن تنفذها ، وهناك أيضًا معاهدات واتفاقات تربطها

بالعالم الغربى . وتحاول تلك الأنظمة أن تحقق - ولو الحد الأدنى من التوافق بين الاثنين ، وهى بذلك تحاول فعل المستحيل وتبدد الكثير من الجهد والوقت .

- إن تلك الشعوب تتعرض لمحو ذاكرتها ، وطمس تاريخها ، والعبث بالثوابت التى تربطها بالأرض والهوية ، لجعلها تفقد اتزانها والإحساس بذاتها ليسهل بعد ذلك تشكيلها .
- إن تلك الشعوب - أو بعضها - تعتمد فى جزء كبير من مرافق حياتها على الغرب فى المأكل والمشرب والملبس والعلاج ، وهذا الاعتماد غير موقوت بزمن محدد ، ولا تجد غضاضة فى ذلك . وقد يرضى هذا فيها نزعة الكسل والتراخى والميل إلى الراحة والدعة .
- هناك قيم ومفاهيم ومبادئ مبتورة أو مغيبة أو مطموسة إما عن جهل أو غفلة أو تعمد ، وتلك القيم والمفاهيم والمبادئ من أصول الدين مثل الحرية والشورى والعلم والعمل . ومواصفات من يلى الأمر وحرمة دم المسلم مهما كان انتماؤه ومهما كان اختلافه مع الآخرين وواجبات الشعوب الإسلامية نحو بعضها البعض.
- الوعى الفكرى والثقافى لدى أغلب الشعوب الإسلامية فى حده الأدنى لذلك من السهل التأثير فيها وتوجيهها والسيطرة عليها فكريا ، مع أن القيم المهمه فى الدين واضحة مثل (اقرأ- اسأل – ناقش- اعتبر – فكر - تفكر)

إذن هناك أزمة ، وهنا أزمة ، وقاموا بتصديرها إلينا ، كأى شىء يصدرونه لنا، ونحن استوردنا الأزمة ، كأى شىء نستورده منهم ، وحدث التصادم ، ونتج شرر، وأشعل نيران الغضب .

وكـان هنـاك - فـى الغـرب - تعجـب واسـتنكار ، فقـد تعـودوا علـى أن كـل شـىء مستباح لهم ، لا سيما إذا كان ينتمى للشعوب الإسلامية ، الأرض ، السيادة والفكر والحرية والكرامة والدم وهذا حادث منذ زمن ، ولم تغضب الشعوب الإسلامية . فلم تفجرت براكين الغضب ؟!! هنا - وهنا بالذات -.

بالنسبة للشعوب الإسلامية فقد تنـازلوا عن كثير من مقدراتهم وفرطوا فى قضايا مصيرية ، وهانوا على أنفسهم ، وهانوا على الآخرين ... وكان الدين هو المعقل الأخير - ولا معقل بعده - الذى لا يجوز بأى حال من الأحوال السماح بالمساس به فهو الشىء الوحيد فى حياتهم النقى الطاهر السامى المقدس ، الذى يستمدون منه الإحساس بإنسانيتهم والشعور بآدميتهم ، يجدون فيه العزاء والسلوى ، من هذا الانسحاق والانهزام والتراجع والتقهقر فى العالم ومن العالم ، إنه مبدد للقهر والجبروت والطغيان الذى يجدونه فى حياتهم ، إنه ينير تلك الأنفاق المظلمة ويحطم حدودها لتزداد حياتهم اتساعًا ورحابة ووجودهم غنى وثراءً ، ويجعل لوجودهم هدفًا ومعنى ، يرفعون رءوسهم إلى السماء مبتسمة شفاههم ، نضرة وجوهم ، مشرقة نفوسهم ، مرتعشة أرواحهم سعادة وحبورًا ، يسجدون للخالق ، يسبحون بحمده وتردد خلاياهم صلواتهم وسلامهم على نبى الخير والعدل والسلام محمد ﷺ

حينما يمس أحد هذا المقدس ... لا عجب ، بل العجب كل العجب ألا تتفجر براكين الغضب .

ولكن ما علاقة هذا بالكتاب الذى بين أيدينا ؟

بالأمس اغتيل عمر ؟ قُتِلَ بيد أجنبية غادرة حاقدة مسمومة ، وضعت حدًّا للشخص ولكنها لم تستطع أن تقتل الشخصية أنهت وجود إنسان فى زمان ومكان، ولم تستطع أن تمحو أو تبدد خلود ذاكرة فى كل الأزمنة والأمكنة .

واليوم محاولة لتشويه صورة محمد - ﷺ - بقلم غادر حاقد ومداد مسموم لا يعرفون أن صورته - ﷺ - مرسومة بحروف من نور ، داخل إطار من الطهر والنقاء تشع نورًا وسلاما وهدى فى قلوب الملايين ، وإنهم لعاجزون أن يمحوا تلك الصورة من قلب واحد من تلك الملايين .

أبو لؤلؤة الملعون استبدل بالخنجر قلمًا ، ظنًّا منه أن ما عجز عن تحقيقه بالخنجر قد يفلح فى تنفيذه بالقلم اليوم !! .

وهناك صلة أوثق بين هذا الموضوع وموضوع الكتاب . أو صاحب سيرة هذا الكتاب الغضب النبيل الذى كان يمتلئ به قلب عمر كلما نال شخصَ رسول الله شيءٌ ولو هينًا.

صلاة وسلامًا عليك يا محمد ... يا رسول السلام والعدل والخير. وسلامًا عليك يا عمر... يا من فرق الله بك بين الحق والباطل .